الفصل السابع

طليحة وغزوة البزاخة

باءت عبس وذبيان وبنو بكر ومن آزرهم فى مهاجمة المدينة بعار الهزيمة ، فانحازت إلى طُلَيحةَ بن خُوَيلد الأسدىّ . وانضم إلى هؤلاء قبائل طيّئ وغَطَفان وسُلَيْم وما جاورها من أهل البادية الواقعة شرق المدينة وإلى شمالها الشرقى . وكانوا جميعاً يقولون ما يقوله عُيَينة بن حِصْن ومن معه من بنى فَزارة : « نبىٌّ من الحليفين — يعنون أسداً وغطفان — أحبّ إلينا من نبىٍّ من قريش . وقد مات محمد وطليحة حىّ » .

ولم يكن هؤلاء فى ريب من أن أبا بكر سيتجهّز لهم ويحاربهم . لكنهم أصرّوا على مناهضته ، وعلى متابعة طُليحة ، تمرّداً على سلطان المدينة ، وحرصاً على استقلالهم ، واستكباراً أن يؤْتوا الزكاة ، إذ هم يرونها إتاوة يؤدّيها التابع للمتبوع . وكان طُلَيحة يقيم بسَمِيرَاء ، ثم انتقل منها إلى بُزَاخةَ يحسبها أمنع موقعاً وخيراً فى الحرب مكاناً .

تنبؤ طليحة بن خويلد الأسدى

وطُلَيحةُ لم يتنبّأ بعد موت رسول الله ، بل تنبأ فى العهد الأخير من حياته ، شأنه فى ذلك شأن الأسود العنسىّ ومُسيلمة . وهو لم يدعُ العرب إلى العودة لعبادة الأصنام ، كما لم يدعُهم غيره من المتنبئين إلى العود لعبادتها . لقد قضى محمد على هذه الوثنية فى بلاد العرب قضاءً مبرماً ، فامتدّت دعوة التوحيد إلى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واستقرت فى النفوس استقراراً جعل التفكير فى الأصنام ضرباً من الهذيان يستحيى منه كل إنسان . وإنما زعم أولئك المتنبئون أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى

محمد ، وأن الملك يأتيهم من السماء كما يأتى محمداً . وقد حاول بعضهم محاكاة القرآن فيما أوهم أنه يوحَى إليه ، وحفظت الروايات لنا صوراً لما زعموا من ذلك يصعب القطع بصحة نسبتها . فهى من السّخف بحيث يتعذّر على أى إنسان أن يتصوّر كيف يرضى متنبئ إذاعتها باسمه فى الناس ، وكيف يُقبل الناس عليه أو يتّبعونه حين يرونه ينسب هذا الهذر إلى الوحى و يدّعى أنه من كلام رب العالمين . وحَسْبُك أن تتلو ما قيل إن طُليحة زعم أنه أوحى إليه لترتاب فى أنْ يدّعيه رجل تجتمع العرب حوله ، ثم يكون له من بعدُ فى الإسلام مواقف لا يزال يحفظها التاريخ عن وقائع الفتح فى إبّان عهد عمر بن الخطاب . ومما تذكر الروايات عما زعم طُليحة أنه أوحى إليه قوله : « والحمام واليمام ، والصُّرَد الصوّام ، قد ضمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » .

ما يزعم طليحة أنه يوحى إليه

لقد طالما قرأنا عن سجع الكُهّان فى الجاهلية . وكلنا نذكر أن قريشاً حاربت محمداً بأنه كاهن ، و بأن ما يوحى إليه هو بعض هذا السجع . ولقد استبان لمن عاصروا النبيّ أن هذه الدعاية هُراء حين تُوَجّه إلى القرآن ، ثم استبان للعرب وللناس جميعاً أن القرآن معجزة محمد ، لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد كان طُليحة كاهناً ، كما كان الأسود العنسىّ كاهناً . أفهذا السجع الذى ادّعَوْه وحياً كان من سجع الكهان ؟! لئن صح ذلك لقد كان هؤلاء الكهان طرازاً من المشعبذين أعجب طراز ، ولقد كان ما ينسب إليهم من الحكمة مما يزرى بالحكمة .

وسواء أصحت نسبة هذه الأقوال إلى طليحة أم لم تصحّ فإنه قام يدعو إلى آراء لم يحفظ لنا التاريخ منها شيئاً يذكر . وكل ما يحدّثنا به أنه أنكر الركوع والسجود فى الصلاة ، وقال إن الله لم يأمر أن تمرّغوا وجوهكم فى التراب ، أو أن تقوّسوا ظهوركم فى الصلاة . فإن يكن ما نسب إليه من ذلك صحيحاً فلعله نقله عن الصلاة

موقف المسلمين من آثار المتنبئين

عند المسيحيين . وإنما ترجع قلّة ما بقى لنا من آثار طُلَيحةَ ومُسَيلمة وأضرابهما إلى مثل السبب الذى ترجع إليه قلّة ما لدينا عن الأصنام ؛ فقد عفّى المسلمون الأولون على ذلك كله ، ولم يفكر أحد منهم فى تدوينه أو روايته ، ولم يدوّن من بعدُ إلا ما عُدّ تدوينه تأييداً للدين القيم . وأنت تعرف أن المسلمين لم يدوّنوا فى الصدر الأول شيئاً إلا ما كان من جمع أبى بكر كتاب الله . فأمّا جمعُ السنّة والحديث فقد حدث بعد القرن الأول ، وقد اقتضى العاملين عليه من المشقّة ما لم يهوّنه إلا عظيم الرجاء فى مثوبة الله عنه . فلا عجب وذلك هو الشأن أن تخامرنا الريبة فى كثير من الروايات عن طُليحة وغيره من المتنبئين ، وبخاصة إذا لم تتفق هذه الروايات والمعروف من حياة العرب فى حضرهم وبدوهم ، ولم تتسق مع ما يتصل بها من الأحداث والشؤون .

محمد يأمر بقتال المرتدين في بنى أسد

تنبأ طُليحة فى بنى أسَدٍ ، كما تنبأ الأسود فى اليمن ومسيلمة فى اليمامة ، فى حياة النبي . هنالك وجّه محمدٌ ضِرار بن الأزور إلى عُمّاله على بنى أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتدّ . ونزل المسلمون وَارِدات ، ونزل طليحة ومن معه سَميراء . وكان عدد المسلمين يزداد ، وعدد المرتدين ينقص ، لتواتر الأنباء عن نصر المسلمين فى شتّى الميادين ، حتى همّ ضرار بالسير إلى طُليحة لمقاتلته . ولقد سبقه أحد المسلمين يريد أن يُريح من هذا المتنبئ فضربه بالسلاح فنبا عنه ولم يُصبه . وأسرع المحيطون بطليحة فأذاعوا هذا الأمر فى الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لا يجوز فى نبيّهم . وإن المسلمين ليتجهّزون لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم النبأ بوفاة رسول الله ، فاضطربوا وتناقص عددهم ، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيّدونه . فلمّا انحازت إليه عَبْسٌ وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكر بذى القَصّة استغلظ أمره وظنّ أن لن يغلب .

اجتمع إلى عبس وذبيان من القبائل ما زاد طُليحة قوة . ذلك أن أسداً

وغطفان وطيئا كان بينها حِلْفٌ فى الجاهليّة من قبل أن يُبعث رسول الله ، ثم إن أسَدًا وغَطَفان اجتمعتا على طيّئ فأجلوها عن ديارها ، وانقطع بذلك ما بينها و بينهما . فلما مات رسول الله قام عُيَينة بن حِصْن الفَزارىّ فى غطفان فقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا و بين بنى أسد . و إنى لمجدِّد الحِلْفَ الذى كان بيننا فى القديم ومتابعٌ طليحة . والله لأن نتّبع نبيًّا من الحليفين أحبّ إلينا من أن نتّبع نبيًّا من قريش . وقد مات محمد و بقى طُليحة » . وتابع عيينةَ قومُه على رأيه ، فاشتدّت بهم شوكة المرتدين حتى فرّ من كان بينهم من المسلمين إلى المدينة .

عيينة بن حصن الفزارى يؤيد طليحة

اجتمعت هذه القبائل فى بزاخة معلنة رِدّتها وخروجها على سلطان المدينة . وتهيأ أبو بكر فعقد الألوية لقتالهم ، و بعث إليهم ، كما بعث إلى غيرهم من أهل شبه الجزيرة ، بكتابه يهدّدهم فيه بالقتال والقتل إن لم يعودوا إلى حظيرة الإسلام . وكان خالد بن الوليد هو الموكّل بطُلَيحة و بمالك بن نويرة من بعدُ . فهل أسرع بالسير إليه ليناجزه و يناجز معه كل هذه القبائل ؟ كلا ! بل أذاع أبو بكر أنه خارج بنفسه على رأس جيش إلى خَيْبَر حتى يلاقى خالداً فيُعينه على جموع المرتدين . ثم إنه طلب إلى عَدِىّ بن حاتم ، وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة كما أسلفنا ، أن يذهب إلى قومه طيئ يخوّفهم عاقبة أمرهم إذا أصرّوا على ردّتهم . ولم يقصدْ خالد إلى البزاخة من فوره ، بل جنح إلى أَجَأ وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضمّ إلى جيش الخليفة ثم ينصبّ الجيشان على البزاخة . و بلَغ عدىٌّ قومه وقد ذاعت هذه الأنباء فى الناس .

سياسة أبى بكر للتفريق بين طيئ وحلفائها

وتحدّث عدىٌّ إلى بني طيئ يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام ، وليكونوا مع أبى بكر صفًّا . قالوا : « لا نتابع أبا الفصيل أبداً » . وأبو الفصيل كنية أراد خصوم الصدّيق أن يسخَروا بها من كنيته أبى بكر . هنالك قال عدىّ : « لقد أتاكم قوم ليُبيحنّ حريمكم ، ولَتَكْنُنّه بالفحل الأكبر ، فشأنكم به » . وذكر لهم من عِدّة

المسلمين وعُدَدهم ما روّعهم وأفزعهم وأراهم الفصيل نخلا حقًّا . وأنّى لهم أن يرتابوا فى حديث عدىّ وقد هزم أبو بكر عبساً وذبيان ومن ناصرهما حين كانت جيوشه بعيدة عنه على تخوم الروم ! وفيم يقاتلون أبا بكر وعدىٌّ لا يطلب إليهم إلا أن يقيموا على ما كانوا عليه فى عهد الرسول !! وهل تراهم يعرّضون أنفسهم وأبناءهم ونساءهم لما عُرف عن خالد بن الوليد من شدّة وقسوة لغير شىء إلاّ أن يستبدلوا طُليحة بأبى بكر ! !

تحدّث بعضهم إلى بعض فى هذا ، فرأَوا أنّ عدياًّ على الحق، وأنه يخلص لهم الرأى و يصدُقهم النصيحة . عند ذلك توجّهوا إليه بالقول : « إذن فاستقبِل الجيش فنهْنِهْه عنا حتى نستخرج مَنْ لحِق بالبزاخة منّا ؛ فإنا إن خالفنا طُليحة وهم فى يديه قتلهم وارتهنهم » . وفرح عدىّ بما بلغ من إقناعهم ، وكرّ راجعاً إلى السُّنْح فاستقبل خالداً وقال له : « ياخالد ! أمسِكْ عنّى ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوّك ، وذلك خير لك من أن تعَجِّلَهم إلى النار وتَشّاغل بهم » . ولم يكن خالدٌ ليخفَى عليه ، وهو الخبير النابغة فى الحرب ، أن انسلاخ طيء عن طُليحة يُضعفه ويَفُتّ فى عضده . لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، فى حين عاد عدىٌّ إلى قومه فألفاهم أرسلوا إلى إخوانهم بالبزاخة أن يأتوهم مدداً يعاونهم على جند المسلمين قبل أن يهاجموا طُلَيحة . وراقت هذه الحجّة طليحةَ ، فتركهم ينصرفون إلى طيء . فلما تحدّثوا إلى قومهم وتحدّث إليهم قومهم برأى عدىٍّ اقتنعوا وعاد عدىٌّ بإسلامهم إلى خالد .

طيء تنسلخ عن طليحة وتعود إلى الاسلام وتقاتل مع خالدبن الوليد

وارتحل خالد نحو الأَنْسُر يريد جَديلةَ . وتعرّض له عدىٌّ كرّةً أخرى فقال له : « إن طيئاً كالطائر ، وإن جديلةَ أحد جناحى طيء ، فأجّلنى أياماً لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث » . ولم يتردّد خالد فى إجابته إلى ماطلب ، فذهب إلى جديلة ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاء خالداً بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب . يقول المؤرخون : فكان عدىٌّ خير مولود ولد فى أرض طيء وأعظمه عليهم بركة .

طليحة يصر مع ذلك على مقاومة المسلمين

بلغت أنباء طيئ وجديلةَ طليحةَ وهو فيمن بقي معه بالبزاخة . ولست فى حاجة إلى أن أذكر ما وهّنت هذه الأنباء من عزمه وأضعفت من قوته . لكنه أصرّ مع ذلك على موقف المقاومة إذا هوجم . وما كان له أن يفعل غير ذلك و إلى جانبه عُيينة ابن حِصْنٍ على رأس سبعمائة من فزارة ، وهو أشدّ الناس حنقاً على أبى بكر وحرصاً على توهين سلطان المسلمين . فعيينة هو الذى كان على رأس فزارة فى غزوة الأحزاب ، وكان صاحبَ كتيبة من الكتائب الثلاث التى حاولت مهاجمة المدينة بعد اتفاق الأحزاب مع بنى قُرَيْظةَ . ثم إنه هو الذى أراد الإغارة على المدينة بعد قليل من هزيمة الأحزاب فصدّه رسول الله ، وحمله على الفرار فى غزاة ذى قَرَدٍ . فإن يكن قد أسلم بعد مواقفه تلك ، فإنما أسلم مُذعناً للقوة التى لا تُغْلَب . أمّا وقد قبض الله رسوله إليه فلن يرضى عن سلطان أبى بكر . لن يستطيع طُليحة إذن أن يرجع عن نبوّته بعد أن غادرته طيئ وجديلة وهو يعلم أن رجوعه يقلب عليه عُيينة و يثير عليه كل مَنْ حوله ، و يعرّض حياته للخطر . فليُقِمْ حيث هو ، ولينتظر خالد ابن الوليد ومن معه ، ثم ليكن الأمر بعد ذلك ما يكون .

طليعة خالد بن الوليد لقتال طليحة تقتل أخاه حبالا

وآن لخالد أن يتحرك لمقاتلة المرتدّين ، فأرسل طليعةً له عُكّاشةَ بن مِحْصَنٍ وثابت بن أَقْرَم الأنصارىّ ، وكانا من سادات العرب وأبطالها ذوى الشوكة . ولقي عكّاشة وثابتٌ حِبالاً أخا طُليحة[1] فقتلاه . فلما بلغ مقتله طليحةَ خرج مع أخيه الآخر سلمة ينظران و يسألان . ولم يُمهل سلمةُ ثابتاً حين رآه أن قتله . وثبت عكّاشة لطليحة ، فاستعان بأخيه سلمة وقتلا عكّاشة ثم رجعا أدراجهما .

وأقبل خالد بن الوليد بالناس ، فلما رأوا صاحبيهم قتيلين جزعوا وقالوا : سيّدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم ! ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع فآثر ألاّ يواجه بهم عدوّهم حتى تطمئن نفوسهم . لذلك انحرف بهم إلى طيئ ، واستنفر

(١) هكذا فى كتاب الكامل لابن الأثير . ولكن الذى فى الطبرى والقاموس وغيرهما أن حبالا هو ابن سلمة بن خويلد ، فهو ابن أخى طليحة لا أخوه .

بمعونة عدىّ كل من استطاع أن يستنفره من رجالها . ورأى المسلمون عددهم يزداد وقوّتهم تتضاعف بهذا العدد ، فطابت بالحرب نفوسهم ، فسار بهم خالد إلى بزاخة ليقضي على طُلَيحة غير وانٍ ولا متردد .

الطائيون يقاتلون قيساً

وكانت قيس و بنو أسد متجهزين حول طُليحة للقتال . قال قوم من الطائيين الذين انضموا إلى جنود خالد : سألنا خالداً أن نكفيه قيساً فإن بنى أسد حلفاؤنا . فقال : والله ما قيسٌ بأوهن الشوكتين ، اصمدوا إلى أىّ القبيلتين أحببتم . فقال عدىّ : لو ترك هذا الدِّينَ أسرتى الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه . أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسَدٍ لحِلْفهم ! لا لعمر الله لا أفعل ! فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد . لا تخالف رأى أصحابك . امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط . وكذلك قاتلت طيئ قيساً ، وقاتل سائر المسلمين بنى أسد .

عيينة بن حصن يقود المرتدين وطليحة يتنبأ لهم

وكان عُيَيْنةُ بن حِصْن هو الذى يقود المعركة فى جانب طليحة فى حين كان طليحةُ يقيم فى بيت من الشَّعر ملتفًّا فى كساء له يتنبأ للناس . فلمّا حمى وطيس الحرب ورأى عُيينة قوّة خالد والمسلمين كرّ على طُليحة يسأله : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال لا . فرجع عيينة فقاتل ، حتى إذا ازداد وطيس الحرب ضراماً كرّ راجعاً إلى طُليحة يقول : لا أبالك ! أجاءك جبريل بعدُ ؟ قال : لا والله . قال عيينة : حتى متى ! والله لقد بُلِغ منا . ثم إنه رجع إلى الوطيس فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طُليحة فزِعاً يكرر : هل جاءك جبريل بعدُ ؟ قال نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال طليحة : إنه قال لى : « إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » . ولم يتمالك عُيَينة حين سمع الهذر أن صاح : قد علم الله أنْ سيكون حديث لا تنساه . ثم نادى فى قومه : انصرفوا يابنى فزَارة فإنه كذّاب !

هزيمة طليحة وجيشه

وانصرف الناس يولّون الأدبار . ومرّ قوم بطليحة ينادونه : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعدّ فرسه عنده وهيأ بعيراً لامرأته النّوار . فلمّا بَصُرَ بالناس يغشَونه

وينادونه قام فوثب على فرسه ثم حمل امرأته ونجا بها ، وهو يقول : « من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » .

طليحة يفر إلى الشام ويعود إلى الاسلام

كانت هذه خاتمةَ المقاومة التى حاول هذا المتنبئ أن يثبت بها لأبى بكر ، بل كانت هذه خاتمة نبوّته ؛ فقد لحق بالشام وكذّبه من قالوا من قبل بنبوّته . واستقر المقام بطُليحة فى كَلْبٍ فنزل بها ، وعاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التى تابعته قد عادت إلى الدين القيم . وخرج بعد ذلك إلى مكة معتمراً فى خلافة أبى بكر ، فمرّ بجنبات المدينة ، فذكر بعضهم لأبى بكر مكانه ؛ فقال : « ما أصنع به ! خلّوا عنه فقد هداه الله للإسلام » .

ولما استخلف عمر بن الخطّاب أتى طليحةُ يبايعه ؛ فقال له عمر : أنت قاتل عكّاشة وثابت ! والله لا أحبّك أبدا ! قال: ياأمير المؤمنين ، ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يُهِنِّ بأيديهما ؛ فرضى عمر بيعته ، ثم قال له : ياخُدَع ، مابقى من كهانتك ؟ قال : نفخة أو نفختان . ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم ، حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء .

انصرف عُيَينة بن حصن فى قومه من بنى فزَارة وأعلن على ملأ من الناس أن طليحة كذّاب . وفرّ طليحة على فرسه واصطحب امرأته النوّار ونصح للناس أن يفرّوا . أفكان ذلك آخر النضال بين خالد بن الوليد والقبائل التى وقفت فى صفّ طليحة ، وبينه وبين القبائل المرتدّة فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة ؟ ! قد يتبادر ذلك إلى الذهن ، وبخاصة إذا عرفت أنّ بنى أسد قومَ طُليحةَ عادوا إلى الإسلام ولم يكن قد أُصيب فى القتال منهم أحد . لكن الواقع أن خالداً بقى فى عسكره بالبزاخة شهراً كاملا ، وأنه قاتل من فلول القبائل مَنْ بقى على رِدّته ، ومن اجتمع حول أم زِمْل يمالئها على عصيان أبى بكر وعلى الردّة ؛ كما قتل من اعتدى على المسلمين بالقتل ، وبعث إلى المدينة بمن خرجوا على خليفة الرسول

خالد يبقى بالبزاخة يقاتل فلول القبائل المرتدة

أمثال قُرّة بن هُبَيرة ، والفجاءة السُّلمى ، وأبو شَجْرةَ بن عبد العزَّى السُّلَمِىّ ، فدخلوها أسْرَى حتى أنفذ أبو بكر فيهم أمره .

السبب فى إصرار هذه الفلول على ردتها

يجمل بنا قبل أن نقص نبأ أم زِمْلٍ وسائر المرتدّين من فلول جيش طُليحة ، أن نقف هنيهة وأن نسأل : ما بال هؤلاء القوم لم يرجعوا إلى الإسلام كما رجع بنو أسد قوم طليحة وأعرف الناس به ؟ ! أفلا يقتضيهم العقل بعد ما تبيّنوا كذبه أن يكونوا مع المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ؟ لقد أسلفنا جواباً على مثل هذا السؤال . فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوة محمد ولم يؤمنوا بها . وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزؤاً فعدل عنها إلى عبادة الواحد الأحد . لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تطمئن إليه طبائعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه . وقد صارحوا أبا بكر بهذا فى أمر الزكاة ؛ لأن حب الناس المال أقوى فى نفوسهم من كل شىء غيره . لكنهم كانوا يودّون لو تحللوا من الصلاة ومن سائر التكاليف التي فرضها الإسلام عليهم . وهم إنما اتّبعوا طُليحة ، واتبعوا مسيلمة ، واتبعوا غير هذين ، ليحطّوا عن عواتقهم ما فرضه الإسلام عليهم . فإذا ثبتوا بعد فرار طُليحة وأرادوا مواجهة خالد فذلك لأنهم يأملون فى نصر يجعل أبا بكر يصالحهم على النزول عن بعض هذه التكاليف ، ويحقق لهم ما كانوا يرجونه من مصانعة طُليحة .

وثَمَّ سبب آخر يتصل بنفسية البدو والأعراب ومن إليهم جعلهم لا ينفضّون بفرار طليحة . فقد كانت بينهم وبين المهاجرين والأنصار ثارات قديمة من عهد الرسول تناسوها حين تغلّب الرسول عليهم فأذعنوا لسلطانه وأظهروا الرضا بأمره . وإنما كان شأنهم فى ذلك شأن المغلوب يرضى كارهاً ، فإذا أتيحت له فرصة الثأر اقتنصها ولم يفتها . وهذه فرصة تهيأت تُعيد للأذهان يوم الأحزاب وغزوة الخندق . ولقد كانت المدينة مُوشكةً أن تفتح أبوابها للأحزاب لولا الريح الصرصر العاتية التى

جعلتهم يولّون منها فِراراً و يمتلئون رعباً . فليهتبلوا هذه الفرصة التى أتاحتها المقادير لمواجهــة خالد وليثبتوا له ، لعلهم يكونون أحسن حظًّا ممـا كانوا على عهـد محمد ، ولعلهم يستعيدون لقبائل البـادية ذلك الاستقلال العزيز عليها بعد أن تقلّص ظلّه أو كاد .

ولو أن القبائل كلها حرّكتها هذه العواطف البدويّة لدقّ موقف خالد والذين معه . لـكنك قد رأيت طيّئًا تنحاز مع من انحـاز إلى طُليحة ، ثم لا تلبث حين يخـاطبها عدىٌّ بن حاتم أن تعود إلى الإسلام ، وأن تنضم إلى خالد وأن تحارب فى صفه ، وأن تُدْخل على طليحة من الفزع ما كان بيّن الأثر فى هزيمته . ولقد حدث مثل ذلك بعد أن فرّ طليحة وانخذل عُيينة فى بنى فَزارة. كانت بنو عامر تُقَدِّم للرِّدَّة رِجْلًا وتؤخِّر أخرى تنتظر ما يصـير إليه أمر قيس و بنى أسد . فلمـا هزمهم خالد ودارت عليهم دائرة السوء ، أقبلت بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منـه . و بايعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسَد وغَطَفان وطيّئ قبلهم ؛ فكان لعودهم إلى الإسلام أثره فيمن سواهم من القبائل ، كما كان لعود طيّئ إلى الإسلام أثره فى طُليحة ومن انحازوا إليه .

بطش خالد بالذين قتلوا المسلمين

ثم إن خالداً أخذ الذين قتلوا المسلمين من مختلف القبائل بشدّة أورثت القلوب الرعب . فهو لم يقبَل من غطَفان وهوازن وسُلَيْم وطيِّء حين وادعهم إلا أن يجيئوه بالذين قتلوا وحرّقوا ومثّلوا وعَدَوْا على المسلمين الذين كانوا بينهم حين رِدّتهم . فلما جيء بهم صفح عن الأذناب ، وأخذ الزعماء منهم ، وبينهم قُرّة بن هُبَيرَة ، فأوثقهم ؛ ومثّل بالذين عَدَوْا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم فى الآبار ، ورضَخهم بالحجارة ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر . أما قُرّة بن هُبيرة وعُيَيْنة ابن حصن فبعث بهما مع طائفة من الأسْرَى إلى أبى بكر ، وكتب إليه يقول : « إن بني عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت فى الإسلام بعد تربُّص . وإنى لم أقبل من أحد

قاتلنى أو سالمنى شيئاً حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين . وقد قتلت المعتدين كل قتلة ، و بعثت إليك بقُرّة وأصحابه » .

أبو بكر يقر سياسة خالد

ولم تأخذ أبا بكر فى الذين قتلهم خالد شفقة أو رحمة ، بل رأى فيهم أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه الحق ، فكتب إلى خالد يقول : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً . واتق الله فى أمرك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جِدّ فى أمر الله ولا تنثنينّ . ولا تظفرنّ بأحد قتل المسلمين إلاّ قتلته ونكّلت به جهرةً ، ومن أصبت ممن حادَّ الله أو صادّه ممن ترى فى قتله صلاحاً فاقتله » . ذلك ما كتبه أبو بكر رقيق القلب لين الطبع إلا فيما يُغضب الله ورسوله . فلما بلغ كتابه خالداً أمعن فى سياسة الإرهاب التى بدأها . وطال مُقامه على البزاخة شهراً يصعد عنها و يصوب إليها فى طلب المعتدين على الإسلام والمسلمين ، فمنهم من أُحْرَقَ ، ومنهم مَنْ رمى به من رءوس الجبال ، ومنهم مَنْ رجَم بالحجارة .

لكنه يحقن دم الأسرى الذين جىء بهم إلى المدينة

على أن أبا بكر اتخذ فى معاملة الأسرى الذين جاءوا إلى المدينة سياسة ليست كسياسة خالد بأساً وشدّة . فقد رأيت ما كان من عُيَينة بن حصن ومخالفته طُليحة وقتاله المسلمين . وقد جاء مع قُرّة إلى المدينة فى الأسرى و يداه مجموعتان بحبل إلى عنقه . وكان غلمان المدينة ينخسونه بالجريد و يقولون له : أىْ عدوّ الله ، أكفرت بعد إيمانك ! فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط . ومع ذلك تجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه ، فاتّقى بذلك شرّه وشرّ بني فَزارة معه .

قصة قرة ابن هبيرة

أمّا قُرّة بن هُبيرة فكان فى بنى عامر . وقد مرّ به عمرو بن العاص عائداً من عمان إلى المدينة فنزل عليه ، فرآه وقومه يقدِّمون للردّة رِجْلًا و يؤخِّرون أخرى . فلما أراد عمرو الرحلة خلا به قرّة فقال : « ياهذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة . فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، و إن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » . وأجابه عمرو : « أكفرتَ ياقرّة ؟! أتُواعدنا بالعرب

وتخوّفنا بها ! » . فلما أرسل خالد قرّة أسيراً إلى المدينة وجيء به إلى أبى بكر ، قال : « ياخليفة رسول الله ، إنى قد كنت امرأً مُسلماً ، ولى من ذلك على إسلامى عند عمرو بن العاص شهادة . قد مرّ بى فأكرمته وقرّيته ومنعته » . فدعا أبو بكر عمراً وسأله عن قرّة وأمره ، فقصّ عليه الخبر ، حتى إذا انتهى إلى أمر الصدقة وما قال عنها اعترضه قرّة قائلا : حَسْبُك يرحمك الله ! . قال عمرو : لا والله ، حتى أبلِّغ له كل ما قلت . فلما أتم عمرو كلامه ابتسم أبو بكر وتجاوز عن قُرّة وحقن دمه .

قصة علقمة ابن علاثة

لم تكن سياسة الصفح سياسةَ هوادة أو تردّد من أبى بكر ، بل كان المقصود منها تسكين الثارات ما كان فى تسكينها للإسلام والمسلمين خير . أما فيما خلا ذلك فلم يكن اللين يعرف إلى قلب أبى بكر سبيلا ما اتصل الأمر برسالة محمد . كان علقمة بن عُلاَثةَ من بنى كلب قد أسلم ثم ارتدّ فى زمن الرسول ولحِق بالشام . فلما تُوفّى محمد أقبل مسرعاً حتى عسكر فى بنى كلب . و بلغ ذلك أبا بكر ، فبعث إليه القعقاعَ بن عمرو وأمره أن يسير حتى يغير عليه لعله أن يأخذه أو يقتله ، وقال له : « واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصْنَعْ ما عندك » . وخرج القعقاع فى رجاله ، فلم يثبُت له علقمة وفرّ راكضاً ، وأسلمت امرأته و بناته ومن أقام من الرجال ، وجحدوا أن يكونوا مالئوه . ورجع علقمة إلى أبى بكر تائباً ، فقبل منه وحقن دمه ؛ لأنه لم يقاتل المسلمين ولم يقتل منهم .

مقتل الفجاءة السلمى

لكنه لم يقبل من الفُجَاءة إياَس بن عبد ياليل ولم يحقِن دمه . فقد قدِم الفُجَاءة هذا على أبى بكر فقال له: أعِنّى بسلاح ومُرْنى بمن شئت من أهل الرّدّة . فأعطاه سلاحاً وأمره بما شاء أن يأمره به . لكن الفجاءة شَنَّها غارة فى سُلَيْمٍ وعامر وهوازن على المسلمين والمرتدين على سواء ، وقتل من المسلمين مَنْ قتل . عند ذلك أرسل أبو بكر طُرَيْفةَ بن حاجز فى رجال فاتلوا الفجاءة ومن معه وجاءوا به أسيراً . فأمر أبو بكر فأوقدت له نار فى مُصَلّى البقيع على حطب كثير ، ثم رُمِى به فيها فمات

حرقاً . ولو لم يقتل الفجاءة من المسلمين مَنْ قتل لَمَا أصابته هذه الميتة القاسية التى أسف أبو بكر لقسوتها من بعدُ وتمنّى لو لم تكن كذلك .

قصة أبى شجرة ابن عبد العزى

قبل أن نختم هذا الفصل بحديث أم زِمْل نورد قصة أبى شَجْرة بن عبد العُزَّى ؛ فهو بحديث عُيينة وقُرّة وعلقمة أشبه . كان أبو شجرة هذا ابن الخنساء الشاعرة صاحبة المراثى الفياضة فى أخيها صخر ، وكان هو شاعراً مثلها . وقد لحق بأهل الردَّة وجعل يقول الشعر فى تحريضهم على المسلمين وقتالهم . وكان مما قاله فى ذلك قصيدة جاء فيها :

فَرَوَّيْتُ رمحى من كتيبةِ خالدٍ و إنى لأرجو بعدها أن أُعمَّرا

فلما رأى تحريضه على خالد لم يُثمر ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه ، وقد قبل منه أبو بكر وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر جاءه أبو شجرة وهو يعطى المساكين من الصدقة يقسمها بين الفقراء ؛ فقال : ياأمير المؤمنين أعطنى فإنى ذو حاجة . قال عمر: مَنْ أنت ؟ فلما عرفه قال أىْ عدوّ الله ! ألست الذى يقول :

فروّيت رمحى من كتيبة خالد و إنى لأرجو بعدها أن أُعمَّرا

ثم جعل يعلوه بالدِّرّة فى رأسه حتى طار عَدْواً إلى ناقته فارتحلها عائداً إلى قومه من بنى سُلَيْمٍ .

الفلول التى اجتمعت إلى أم زمل

تداول الناس أنباء أبى بكر وعفوه عمن رجع إلى الإسلام بعد ردّته ، فسكنت حدّة القبائل التى ناصرت طُليحة ثم عادت إلى الإسلام حين هزمه خالد بن الوليد . لكن فلولاً من غَطَفان وطيئ وسُلَيم وهوازن وغيرها تجمعت واجتمعت إلى أم زمل سلمى بنت مالك وعاهدتها أن تقف و إياها فى وجهه حتى الموت . ولا شك أنْ قد كان لهذه الفلول ثارات عند المسلمين ، لم تسكِّن منها الهزيمة ولا سكّن منها عفو

أبى بكر ، هى التى حفزتها إلى التجمع والتعاهد على قتال المستيئس . وما بقاؤها بعد فرار طليحة وانكشاف كذبه لولا هـذه التارات وتحرّكها فى نفوسها ! وكان لأم زمل عند المسلمين ثأر لم يندمل جرحه رغم مرّ السنين ، فكان من الطبيعىّ أن تجتمع هذه الفلول حولها وأن تتخذ من ثأرها علماً ولواء لثاراتهم جميعاً .

من هي أم زمن بنت أم قرفة

وأم زمل هذه هى بنت أم قِرْفة التى قُتلتْ أيام النبىّ أشنع قِتْلةً . فقد خرج زيد بن حارثة يوم ذاك إلى بنى فَزارة فلقيهم بوادى القرى فأصابوا رجاله ، وأُصيب هو بجرح مميت حُمِل على أثره إلى المدينة . فلما برئ ردّه رسول الله إلى بنى فَزارة فى جيش فقتلهم وأصاب فيهم وأسَر منهم . وكانت أم قرفة فاطمة بنت بدر بين الأسْرَى . وكانت هى التى تحرّض قومها فى الموقعة الأولى التى أُصيب فيها زيد ؛ فلما ظفِر بها أمر بقتلها فقُتلت قتلا عنيفاً . قيل إن كل ساق من ساقيها شُدّ إلى بعير ثم دفع كل بعير إلى ناحية فتمزّقتْ . وسُبِيت ابنتها أم زمل ، فوقعت لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها ، فأقامت عندها زمناً ثم رجعت إلى قومها . وقد بقى مقتل أمّها ماثلاً أمام عينيها يُقِضُّ مضجعها ألّا تجد إلى الثأر له الوسيلة . فلما كانت الردّة ارتدّت ووجدت من فلول هـذه القبائل عونها على أن تأخذ بثأرها لتهدأ ثائرتها وتسكن حفيظتها .

وكانت أمها أم قرفة فى عِزّة ومكانة من قومها . كانت عمة عُيينة بن حصن ، وكانت زوج مالك بن حُذَيفة ، وكان لها منه أبناء تعتزّ بهم فى بنى فَزارة . وكان لها جمل تخرج عليه فى طليعة قومها إذا خرجوا ليغنَموا من قبيلة أخرى . فلما ماتت بقى هـذا الجمل لابنتها أم زمل . وكانت ابنتها فى مثل عزّها ، وكان لها من المكانة فى قومها ما كان لأمها . فلما اجتمعت حولها فلول القبائل التى قاتلت أبا بكر وخالداً ركبت جملها وسارت بينهم وجعلت تدعوهم لحرب خالد وتشجّعهم ؛ واجتمع مع هذه الفلول كل شريد وكل مضيّق عليه ، حتى استغلظ أمرها وعظم شأنها .

فلما بلغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبّع الثائرين وأخذ الزكاة ودعوة الناس وتسكينهم ، سار إليها يقاتلها .

خالد يقاتل أم زمل ويقتلها

والتقى الجمعان وحمِى وطيس القتال واشتدّت الحرب ، وأم زمل على جملها تحرّض رجالها وتدفعهم إلى المعركة فيندفعون مستبسلين لا يبالون الموت ، حتى لقد أُبيدت منهم بيوت بأسرها . ورأى خالد بأس هذه المرأة وشدّتها واستماتتها فى محاربته فجعل مائة من الإبل لِمَن ينخس جملها . واندفع فوارس المسلمين نحوها ، فإذا من حولها الرجال الأشِدّاء يدافعون عنها ويموتون دونها . ولقد مات حول جملها مائة رجل قبل أن يستطيع فرسان المسلمين الوصول إليه . فلما وصلوا إليه عقروه وقتلوها وقضوا بذلك على فتنتها . فقد فتنت الرجال حقًّا بقوتها وعزّها وشجاعتها وشدّة تحريضها لهم . ولم تلبث هذه الفلول حين رأوا جملها يُعقَر ورأوها تُقتَلُ أن فترتْ عزيمتهم وتشتّت جمعهم ، ففرّوا مولِّين الأدبار لا يُعقِّبون . بذلك خبت نار الفتنة وقضى على الردّة فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة . وما عسى أن يبقى منها وقد فرّ رءوسها أو طاحت رءوسهم فلم تبق منهم باقية !

موقف المرتدين بعد هزيمة طليحة وأنصاره

أو لم يكن هذا المثل الذى ضربه أبو بكر يكفى العرب كى يرجعوا فى سائر الأنحاء من شبه الجزيرة إلى الإسلام !. لقد رأوا جنوده تسير إليهم من كل صوب ، يقصد كل لواء منها إلى حيث أمره خليفة رسول الله . وقد ترامت إليهم أنباء خالد بن الوليد وعرفوا مصير طُليحة ؛ لكنهم أبوا مع ذلك أن يُذعنوا. إنهم رأوا نبىّ قريش ينشُر فى العرب لواءه ، ويمدّ عليهم سلطانه ، فلم لا يكون لكل قبيلة نبىٌّ يَرُدّ عنها قريشاً إن لم ينشر فى مختلف القبائل لواءها ! ونسيت القبائل ونسى الذين ادَّعَوُا النبوة فيها أن محمداً قام فى قريش يدعوها إلى الله لا يريد فيها سلطاناً ولا يبتغى منها جزاء ولا شكوراً ، وأنه قام بأمر ربه فقضى عشر سنوات فى جهاد أى جهاد ، يؤذيه أهله وتُناصبه مكة كلها العداوة ، وتتعرّض حياته وحياة من اتّبعوه

للخطر ، و يأتمر به خصومه ليقتلوه ، و يخرجه قومه من ديارهم مهاجراً إلى المدينة ، لحتى أذن الله لدينه الحق أن ينتشر بين العرب ، وجاءت الوفود من كل صوب تعلن إلى النبي إسلامها . نسى الذين ادّعوا النبوة هذا كله ، وخيّل إليهم أن بلوغ الغاية التي بلغها محمد أمر يسير ، كما نسوا أن محمداً إنما بلغها بالدعوة إلى الحق ، وأنهم يدّعون النبوة زوراً و بهتاناً . لذلك لم يكفهم أن طهّر أبو بكر شمال الجزيرة من رجس الردّة ليثوبوا إلى رشادهم ، بل أخذت أهل الجنوب العزّة بالإثم ، وادّكروا ما كان بينهم و بين الحجاز من قديم الخصومة ، وما كان لآبائهم فيه من غزوات توّجتها أكاليل النصر . أما وقد أصرّوا على العِناد فى رِدّتهم ، فلم يكن بدٌّ من أن يُرَدُّوا عنها إلى الإسلام أو يبوءوا بخزيها و يؤدّوا حياتهم ثمناً لها .

فلينتقل خالد إذن من البزاخة إلى البِطَاح ، ثم لينتقل بعد البطاح إلى اليمامة ، فقد خط القدر فى لوحه أن يردّ سيفُه المرتدين إلى الحق . وما خُطَّ فى لوح القدر لا محالة نافذ .